الطفولة المبكرة واللغة

د.ثائرة شعلان(*)

١- وضع التعليم في العالم العربي :

يبلغ التعداد السكاني للعالم العربي حاليًّا حوالي ٢٨٥ مليون نسمة، ومن بينهم حوالي سبعين مليون نسمة يعانون الأمية، وتحتل النساء والفتيات النسبة الأكبر من تلك الفئة. بالإضافة إلى ذلك، فإن حوالي ٧,٤ مليون طفل في سن المدرسة غير ملتحقين بالنظام التعليمي[١]. وقد ذكرت الإلسكو في بيان لها بمناسبة الاحتفال باليوم العربي لمحو الأمية، أن البيانات الإحصائية حول واقع الأمية في البلاد العربية تشير إلى أن عدد الأميين لدى الفئات العمرية التي تزيد على ١٥ عامًا، ارتفع عمومًا من ٥٠ مليونًا عام ١٩٧٠ إلى ٧٠ مليونًا عام ٢٠٠٥.

وتؤكد إحصائية منظمة اليونيسكو لعام ٢٠٠٠ أن متوسط القراءة في العالم العربي لا يتجاوز ست دقائق في السنة للفرد الواحد، بينما تتضاعف هذه النسبة عشرات المرات بالنسبة للفرد في الغرب. كما إن متوسط إصدارات الكتب لا يزيد عن كتاب واحد لكل ربع مليون مواطن عربي، وفي المقابل يصدر كتاب لكل خمسة إلى عشرة آلاف مواطن في الغرب[٢]. ويرجع ازدياد نسب القراءة في البلاد الأوروبية إلى أن الاهتمام بالقراءة يبدأ منذ الصغر، بينما هناك قصور شديد في إصدار كتب الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة في البلاد العربية.

٢- الطفولة المبكرة في العالم العربي :

من الصعب إجراء تقييم حقيقي لتنمية الطفولة المبكرة في العالم العربي بسبب عدم معرفة عدد الأطفال المستفيدين من البرامج غير الرسمية، ومدى انتشار برامج تنشئة موجهة لأولياء الأمور ذات نوعية جيدة، وإلى أي مدى تشملهم مبادرات تعليم الكبار ومحو الأمية. وطبقًا للبيانات الصادرة عن اليونيسكو، فقد التحق حوالي ١٦٪ فقط من كل الأطفال في سن ما قبل المدرسة في

(*) مديرة إدارة البرامج بالمجلس العربي للطفولة ـ اليمن.

(١) جامعة الدول العربية ومنظمة اليونيسف، عالم عربي جدير بالأطفال، دراسة حول واقع الطفولة في الدول العربية، ٢٠٠٥.

(٢) نقلاً عن سامح كريم، مجلات الأطفال وتنمية الميل للقراءة، ثقافة الطفل العربي، كتاب العربي، ٢٠٠٢م، ص ٥٠.

البلاد العربية بالتعليم خلال العام الدراسي ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠، حيث بلغ عددهم حوالي ٢,٤ مليون طفل نصفهم تقريبًا من الفتيات[٣]. وهناك حاجة كبيرة إلى الالتزام نحو تنمية الطفولة المبكرة من خلال الإطار المؤسسي في المنطقة العربية. ووضع معايير عالية الجودة لأنشطة الطفولة المبكرة وبرامج تدريب للوالدين والمعلمين داخل رياض الأطفال.

١/٢- أهمية مرحلة الطفولة المبكرة:

تُعد مرحلة الطفولة المبكرة أهم مرحلة تسهم في تشكيل شخصية الإنسان، ومستقبله مرهون بالمعطيات الإيجابية والسلبية التي تحيط به في هذه المرحلة. إن الرعاية والتربية في مرحلة الطفولة المبكرة تسهم في تحقيق أهداف التعليم للجميع، حيث تؤدي إلى تحسين الأداء في السنوات الأولى من التعليم الابتدائي، وفي تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية، ولا سيما الهدف العام المتمثل في الحد من الفقر، وكذلك تحقيق الأهداف المتصلة بالتعليم والصحة. فالعناية بالطفولة المبكرة أساس لتحقيق التنمية البشرية المستدامة، وهي إحدى الاستراتيجيات الاجتماعية القليلة التي أثبتت قدرتها على تحطيم حاجز الفقر في وقت مبكر، حيث تؤثر التنمية العقلية والجسدية بشكل دائم على مخرجات الحياة في المستقبل.

وقد تبين من الرصد على أساس الناتج المحلي الإجمالي أنه كلما ارتفعت نسبة الالتحاق بالتعليم قبل المدرسي في بلد أفريقي معين، ازداد معدل إتمام التعليم الابتدائي فيه وانخفض معدل الرسوب. فإن البرامج الخاصة بمرحلة الطفولة المبكرة تشكل استثمارًا جيدًا في رأس المال البشري، بالنظر إلى تأثيرها الإيجابي على الصحة والتغذية والحصيلة التعليمية، وتمثل المهارات المكتسبة في البرامج الخاصة بالرعاية والتربية في مرحلة الطفولة المبكرة الأساس لجميع عمليات التعلم اللاحقة[٤]. لذا؛ من المهم أن يبدأ الأطفال التعلم في سن مبكرة جدًا وعدم الانتظار حتى سن السادسة والسابعة للالتحاق بالمدرسة.

٢/٢- التعلم في الطفولة المبكرة:

قيل قديمًا: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر. وتؤكد نظريات التربية في النمو المعرفي على أهمية السنوات الأولى من عمر الطفل، فقد أثبتت الأبحاث أن دماغ الطفل في الفترة من الميلاد وحتى ١٠ سنوات يكون قابلاً بصورة كبيرة لزيادة عدد وصلاته العصبية. وهي فترة يمكن اعتبارها قمة الاستعداد للتعلم. وأن البيئة التربوية ليست بيئة محايدة، فهي إما بيئة محفزة وداعمة لنمو العضلات العصبية، أو أنها تؤدي إلى ضعف وجفاف هذه الوصلات[٥].

---

(٣) اليونيسكو، ملخص التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع ٢٠٠٧، ص ٥٨.

(٤) ملخص التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤ـ ٢٥.

(٥) سهام الصويغ، المكونات والخصائص الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية للطفل في مرحلة ما قبل المدرسة (٣ـ٦ سنوات)، المؤتمر الخامس لوزراء التربية والتعليم العرب، التربية المبكرة للطفل العربي في عالم متغير، القاهرة، ١٠ـ١١ من سبتمبر ٢٠٠٦، ص ٦ـ٧.

إن الوصلات العصبية تزداد سرعتها في النمو في عمر الأربع سنوات؛ وإن سرعة تكاثرها تزيد ٥٠٪ عن سرعة تكاثرها لدى البالغين. كما أن استهلاك الأطفال في عمر الأربع سنوات لسكر الدم ضعف استهلاكه لدى الراشدين؛ مما يشير إلى زيادة نشاط المخ وبالتالي اعتبار فترة النمو هذه أفضل فترة للنمو المعرفي[٦].

إن التحفيز الحركي والعقلي للطفل في السن المبكرة له أثر إيجابي جداً على نموه اللغوي؛ ولذلك فإن تعليم اللغة العربية السليمة للطفل في المراحل العمرية المبكرة مسألة حاسمة في الحفاظ على اللغة العربية التي ترد عليها لاحقًا لغات أخرى ولهجات متعددة.

٣/٢- المسئولية المشتركة في تعليم الطفولة المبكرة:

إن تحفيز القدرات العقلية مبكراً في حياة الطفل داخل المجتمع المحلي ودور الحضانة والأسرة يوثر بشكل دائم على رفاهية الطفل ونموه المستقبلي. وفي هذا الصدد نجد أن فرنسا، على سبيل المثال، أعادت النظر في قانون الأسرة لتؤكد على مسئولية الوالدين التشاركية في تربية الأطفال على الرغم من حالات الطلاق. كما تم تعيين مساعدين لتثقيف الوالدين للقيام بدورهم التشاركي مع المدرسة في تربية الأبناء وإقامة خط ساخن لمشكلات الآباء في تربية أبنائهم، ومحاصرة ثقافة العنف منذ ميلاد الطفل من خلال التربية الوالدية والأسرة مع إنشاء مجالس للمتابعة والتنسيق[٧].

في العالم العربي تقوم الأم بالدور الأساسي في عملية التنشئة، وخاصة في السنوات السبع الأولى من عمر الطفل. وفي أغلب الأحيان تكون الأم إما غير متعلمة، أو حصلت على نصيب متواضع من التعليم. بالإضافة إلى ذلك، فإن العائلة العربية تقع تحت كَمٍّ هائل من الضغوط الاجتماعية والسياسية وتواجه ضائقة اقتصادية متفاقمة؛ فتهرب إلى الاهتمام بالعالم الآخر بدلاً من العالم الآني. كما أن وجود ظاهرة المربية الأجنبية كإحدى وسائط التنشئة في الأسر العربية الميسورة، وما لهذه الظاهرة من آثار سلبية على نمو الطفل العاطفي والاجتماعي والمعرفي، يؤكد أن تربية وتعليم الأطفال الصغار في مرحلة ما قبل الابتدائي مسئولية اجتماعية وطنية، لا تلقى على عاتق الأسرة وحدها والتي قد لا تؤهلها ظروفها الاجتماعية والاقتصادية للقيام بها بفاعلية[٨].

فلم يَعُدْ من الممكن ترك تربية الأطفال وتنمية مهاراتهم للأسرة فقط؛ خاصة وأن وسائط أخرى متعددة اقتحمت البيوت وتدخلت في طريقة تربية الأطفال وطرق تعبيرهم عن أنفسهم ونوع المصطلحات التي يستخدمونها. ولذلك يجب العمل على أن يكون التعليم في مرحلة الطفولة

(٦) المرجع السابق، ص ٥.

(٧) طلعت عبد الحميد، منهج التطبيق المتكامل لحقوق الطفل في مجال التعليم والثقافة، في كتاب كفالة حقوق الطفل في البلاد العربية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، تحت الطبع.

(٨) انظر: سهام الصويغ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.

المبكرة جزءاً من مراحل التعليم الرسمية، وأن يكون العاملون مع الطفل في سنواته المبكرة من المربين المؤهلين ذوي الكفاءات العليا، وتطوير مؤسسات التعليم ما قبل المدرسة من حيث الأبنية والتجهيزات. وكذلك الاستفادة من الأندية والمراكز الثقافية والمكتبات العامة والمسارح في تحقيق التنمية المتكاملة لكافة جوانب الشخصية بطريقة مخططة. فالتربية في جوهرها عملية مخططة.

٤/٢- برامج الطفولة المبكرة:

تركز برامج تنمية الطفولة المبكرة على تنمية القدرات البشرية في المراحل الأولى؛ حيث تعزز الصحة وسلامة الجسد والمهارات المعرفية اللغوية، والتنمية الاجتماعية والعاطفية للأطفال. كما تستهدف رفع المهارات والوعي الخاص بالآباء والمعلمين والمؤسسات المختلفة الأخرى التي تؤثر على حياة هؤلاء الأطفال الصغار. وتؤثر هذه البرامج على مستوى المشاركة في التعليم الابتدائي وما بعده، وقد أظهرت تجربة التعليم قبل المدرسي في المملكة المتحدة على سبيل المثال، أنها أدت إلى تحسن النمو الفكري والاستقلال والتركيز والمخالطة الاجتماعية خلال السنوات الثلاث الأولى من التعليم الابتدائي[٩].

في معظم الدول العربية تُعتبر وزارة الشئون الاجتماعية هي المسئولة عن برامج رعاية الأطفال منذ الميلاد وحتى ثلاث سنوات، وعند بلوغ الأطفال العام الرابع، تتولى وزارة التربية والتعليم مسئولية الاحتياجات التعليمية للأطفال الصغار. وهناك وزارة ثالثة وهي وزارة الصحة التي يقع على عاتقها توفير البرامج الغذائية للأطفال المعرضين بشدة للإصابة بسوء التغذية. ويُعتبر اشتراك الوزارات في تنمية الطفولة المبكرة من الأمور المعقدة. وحتى يومنا هذا، لا توجد قواعد إرشادية رسمية داخل تلك الوزارات حول تقديم خدمات تنمية الطفولة المبكرة في اتجاه تدريب القائمين بالرعاية أو المناهج التعليمية أو تقديم الخدمات الصحية في رياض الأطفال.

٣- نوعية التعليم:

من المهم أن يتعلم الأطفال من خلال التسلية، وألاَّ تكون الكتب الموجهة لهم جافة وأن تهدف إلى إمتاعهم واللعب معهم ومدهم بمعارف الكون الأساسية. وتقع على مسئول التربية في رياض الأطفال وفي المدرسة الابتدائية عبء كبير في إكساب الأطفال مهارة القراءات الحديثة من خلال آلات التعلم والكتاب الإلكتروني، وكذلك تدريب التلاميذ على استخدام الأسلوب السليم في التفكير وفي حل المشكلات التي تعترضهم في الدراسة وفي حياتهم العملية مستقبلاً[١٠].

(٩) ملخص التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤.

(١٠) أحمد عبد الله العلي، الطفل ومهارات القراءة، إشكاليات القراءة الآلية وتكنولوجيا التعليم، إعداد قارئ جيد في مجتمع معاصر، دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٣م، ص٥.

ورغم أن رعاية الطفولة المبكرة يعد قطاعًا جديداً في العالم العربي وغاية في الأهمية لمستقبل الأمة، فلا توجد قواعد إرشادية رسمية حول تقديم خدمات تنمية الطفولة المبكرة أو المناهج التعليمية في رياض الأطفال، كما أن الهدف الموجه لرعاية وتعليم هذه الفئة من الأطفال مازال غير واضح. وتتم العملية التعليمية بشكل عشوائي حيث تختار كل حضانة وروضة المنهج الخاص بها. وهي من القضايا الخطيرة والهامة التي يجب النظر إليها.

وإذا كان الحديث يكثر في العالم العربي عن التعليم ومعدلاته ومؤشراته الكمية كدليل على مدى كفالة الدول لحق التعليم، فإن الاهتمام لا يرتكز وبنفس القدر على نوعية التعليم وجودته ووظائفه وأهدافه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية[١١].

إن الأساس في التعليم جيد النوعية هو أن يقوم على تحفيز القدرات الذهنية للطفل وإكسابه المهارات الحياتية والمشاركة والاستفادة من التكنولوجيا الجديدة. فالتعليم والمعرفة ليسا مفتاح التقدم الفردي فقط، بل هما كذلك مفتاح النجاح على المستوى القومي. وقد برزت قضية نوعية التعليم التي تُقدم في المدارس، كأحد أهم التحديات التي تواجه الحكومات والمجتمعات العربية الآن[١٢].

إن مقتل التعليم العربي يكمن في نوعيته وجودته التي لا تزال ضعيفة ودون مستوى الطموح. ويرجع تدنِّي النوعية إلى ضعف نوعية المدخلات وغياب المراجعة الدورية المستمرة وغياب روح المبادرات والتجديد[١٣]. وتؤكد اللجنة الدولية لحقوق الطفل في ملاحظاتها على تقارير الدول العربية بأنها معنية بنوعية التعليم وأهدافه؛ مشددة على أن الهدف من التعليم في البلاد العربية غير واضح.

وتزداد الأصوات التي تطالب اليوم بضرورة إعادة هيكلة التعليم في الوطن العربي على نحو يضمن الجودة. فغموض الفلسفة التربوية وما وراءها من فلسفة اجتماعية وضعف الأهداف يجعل الرابط بين التربية وحاجات التنمية الشاملة مفقوداً[١٤]. إلا أن توفير تعليم جيد النوعية يقتضي توافر الإرادة السياسية لإعادة صياغة الأولويات القومية ورفع الميزانيات المرصودة للتعليم، واستعداد السلطات التعليمية لاتباع طرق جديدة للعمل مع الأطفال ومن أجلهم، وأن يكون هناك قناعة بأن كل الأطفال من حقهم، وفي استطاعتهم، أن يتعلموا[١٥].

---

(١١) طلعت عبد الحميد، مرجع سبق ذكره.

(١٢) انظر: عالم عربي جدير بالأطفال، مرجع سبق ذكره.

(١٣) عبد العزيز السنبل، التربية والتعليم في الوطن العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين، دار المريخ للنشر، الرياض، ٢٠٠٤م. ص ٣١٠.

(١٤) انظر المرجع السابق، ص ١٥٧.

(١٥) عالم عربي جدير بالأطفال، مرجع سبق ذكره، ص: ٧٦ – ٧٧.

٤- اللغة في الطفولة المبكرة:

اللغة مرآة الفكر ووسيلة المعرفة، والطريق الأساسي للتفاهم مع الآخرين، ولذلك فهي انعكاس للهوية والعقل الجمعي لأنها ليست أداة تخص واحداً بعينه. ولكنها هبة الجماعة لكل فرد من أفرادها[١٦]. واللغة تعني تطور القدرة على استخدام مجموعة من الأصوات كرموز تدل على الأشياء بما تتضمنه من أحداث ومشاعر. فاللغة هي وسيلة الطفل للتعبير، وهي أداة لتنظيم وتفسير المعلومات التي تم الحصول عليها عن طريق الحواس.

وتؤكد الأبحاث على أن جميع الأطفال في العالم يمرون بسلسة متتابعة ومتوقعة من النمو والتطور؛ وخاصة في السنوات الثماني الأولى من عمرهم[١٧]. كما تشير إلى أن غالبية الأطفال يتمكنون من تعلم تراكيب اللغة الصحيحة بصورة طبيعية وبدون تعليم مباشر، إلا أن هذه القدرة تتطلب وجود الطفل في بيئة غنية ومتفاعلة لغوياً. ويجب أن يكون البرنامج التعليمي مناسباً للمرحلة العمرية. كما يجب أن يتناسب مستوى لغة المتحدث مع المستمع إليها، ومن الطبيعي أن تكون لغتنا للطفل بسيطة ولكن سليمة. كما يجب أن تكون لغة عصرية غير مهجورة وغريبة عن السائد[١٨].

إن تحفيز قدرات الطفل منذ السنوات الأولى تساعده على استخدام مَلَكاته العقلية وتطويرها بشكل يساعده على النجاح المستقبلي. واللغة هي أحد أهم وسائل التواصل والحوار والتعلم التي تتطور قدرات الطفل الذهنية من خلالها. كما أن القراءة للطفل في السنوات الأولى تساعده على التعرف على نسبة كبيرة من الكلمات التي يسمعها ويخزنها، والتي تتطور فيما بعد لتكون أفكاراً يستطيع الطفل التعبير عنها باستخدام مخزون الكلمات التي لديه، ويكون قادراً على توصيل أفكاره بمساعدة هذا المخزون. فالطفل في مرحلة ما قبل المدرسة في احتياج دائم إلى خبرات متعددة، لكي يكتسب حصيلة لغوية تلبي احتياجاته اليومية. وهو أيضاً بحاجة إلى أفكار جديدة يستعين بها عندما يفكر أو يتحدث. ولن يتحقق ذلك إذا ظل محصوراً في إطار أسرته فقط، حيث تكون الفرص محدودة لاكتساب أفكار ومفاهيم جديدة[١٩].

وبقدر ما تكون عليه الأسرة من مستوى ثقافي ووضع اقتصادي جيد ورغبة في القراءة وبقدر ما يكون لديها من مصادر معلومات، يكون استعداد الطفل للنمو اللغوي أفضل من غيره ممن هم

(١٦) محمد المنسي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢.
(١٧) انظر: سهام الصويغ، مرجع سبق ذكره، ص ١٧-٢١.
(١٨) محمد المنسي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.
(١٩) فهيم مصطفى، مشكلات القراءة من الطفولة إلى المراهقة، التشخيص والعلاج، دار الفكر العربي، ٢٠٠١، ص ١٣.

في مثل عمره ولا تتوافر لديهم هذه الإمكانات. فالطفل الذي ينشأ في أسرة منفتحة على الثقافات الأخرى يكون أسرع في اكتساب اللغة وأكثر ثراء في المفردات والتراكيب اللغوية. ومع أن قدرة الطفل على استخدام اللغة استخداماً اجتماعياً يرتبط بالدرجة الأولى بمقدرته العقلية؛ إلا إن مقدرة الطفل اللغوية تخضع في بعض جوانبها لعوامل أخرى، فأطفال البيئات الثرية فكرياً وثقافياً يتحدثون أسرع وأدق وأفضل من أطفال البيئات الاجتماعية والاقتصادية المتواضعة[٢٠].

ويتعلم الطفلُ عادةَ الكلام وتنمو حصيلته اللغوية في مرحلة ما قبل المدرسة بوقت كاف. والطفل الطبيعي عندما يدخل المدرسة الابتدائية يكون لديه قدر من اللغة، يسمح بتعلمِ القراءة وإدراك معاني الكلمات التي يقرؤها، كما تمكِّنه من فهم كلام الآخرين المحيطين به والتعبير عن رغباته وأفكاره. لذلك، فهناك ضرورة لتوفير الوسائل التعليمية المختلفة في المدرسة من أجل نمو خبرات الطفل المحسوسة ونمو أفكاره ومساعدته على التعبير عن هذه الأفكار، مثل الكتب والقصص المصورة والأفلام[٢١]. ويجب ألاَّ يُترك نمو اللغة عند الطفل للفرص العابرة التي تأتي بالمصادفة؛ ومن ثَم لا بد أن يكون هناك تعريف بالكلمات الجديدة ومعانيها. ولتحصيل النمو اللغوي، فإن الطفل في حاجة إلى تعليم مستمر على المهارات في استخدام المكتبة وعلى المهارة في اكتساب المعلومات من الملاحظة والتعامل مع الآخرين.

٥- الكتابة للطفل:

إن الثروات الحقيقية للأمم في المستقبل تكمن في قدرتها على الاستفادة من إنجازات العلم والتكنولوجيا، وليس مصادر الثروة الطبيعية. فقد أصبحت الأفضلية المطلقة للمعارف والمهارات[٢٢]، وعلى الكُتَّاب أن يعدوا الطفل لمواجهة المستقبل. والكتابة للطفل قضية جادة للغاية، ويتحمل فيها الكاتب مسئولية كبيرة. فالطفل في هذه المرحلة عجينه طرية تشكلها رؤى الكاتب. والمادة الأولى لرواية الأطفال هي اللغة، ويجب مخاطبة الأطفال بلغة بسيطة تحاكي عقولهم وتنمي قدراتهم، وتكون بوابتهم إلى عالم المعرفة. فهي التي تشكل أفكارهم ووجدانهم وهويتهم. ومن المؤكد أننا في حاجة إلى قواميس لغوية خاصة بالأطفال، وقواميس غنية بالتفسير السلس للمعاني الصعبة، مزينة بالصور وغنية بالمعلومات. وهذا الأمر كفيل بأن يجعل عملية البحث ممتعة، كما يجعل المعنى يثبت في الذهن لمدة أطول.

والمشكلة التي تواجه الطفل العربي اليوم، وبالتالي الثقافة واللغة العربية، هي العشوائية وعدم الدقة عندما يتعلق الأمر بالفئات العمرية التي يخاطبها الكاتب، وبالتالي بالقاموس اللغوي

(٢٠) المرجع السابق، ص٢٤ـ ٢٥.
(٢١) المرجع السابق، ص٢٥ .
(٢٢) انظر: محمد المنسي قنديل، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦ـ٥٠ .

المناسب لكل من هذه الفئات. إن على الكتاب أن يكونوا قادرين على الرد على أسئلة الطفل المفعمة بالتفتح على العالم والرغبة في استكشافه[٢٣]. فهناك مشكلة حقيقية في الأدب المكتوب للأطفال والناشئة بدءاً من الكتب المدرسية، وهي كتب يُعهد بوضعها إلى موظفين بعيدين عن عالم الفنون واحتياجات الأطفال، مروراً بالكتب المعروضة على قدم المساواة مع كتب الطبخ والسحر والأبراج والرشاقة وتعلم اللغة الأجنبية في خمسة أيام[٢٤].

إن عملية التعلم هي أهم خصائص الطفولة. ومن المهم أن تكون لغة الرواية الموجهة للأطفال سلسة وبسيطة، ولكن سليمة بعيدة عن السذاجة. كما يجب ألاَّ تكون لغة مهجورة عن اللغة السائدة. وأن يكون لها أكثر من مستوى، يصل كل مستوى منها إلى عمر من الأعمار. ولعل من أهم مشاكل الكتابة للطفل هي المستويات المختلفة للغة، حيث من المهم أن يتناسب مستوى لغة المتكلم مع المستمع إليها[٢٥].

وفي حين تزخر المكتبات المدرسية والعامة الأجنبية بالعديد من الكتب الموجهة للأطفال، لا يوجد في البلدان العربية قصص للأطفال حسب الفئات العمرية. كما لا يتوافر للوالدين مادة مناسبة للسن المبكرة لقراءتها للأطفال ترتبط ببيئتهم وبالقيَم الإنسانية والتعاون والانتماء والاعتزاز بالهوية، بينما نجد أن اللغات الأجنبية لديها قصص متدرجة منذ الحضانات وحتى السنوات المتأخرة من عمر الطفل. وهناك بعض المحاولات الفردية، إلا أنه ليس هناك خطة قومية لمشروع من هذا النوع يوفر للأطفال في سن مبكرة مادة تشجعهم على القراءة.

٦- مشاركة الأطفال في بناء ثقافتهم:

بالنظر إلى موضوعات الكتابة للأطفال وأساليبها الفنية المبتكرة لدى كُتَّاب الثقافات الأخرى، ندرك أن ثقافتنا العربية أهملت إرثًا عربيًّا وإسلاميًّا بالغ الغنَى، فليس في المادة الأولى الخام للموضوعات التي عمل عليها كتاب الثقافات الأخرى، وبنوا مَنها أعمالاً جمالية خالدة ما يفوق نظيره في إرثنا وثقافتنا . . . لكن المشكلة، أن مجتمع الثقافة العربية لم يتجاوز نظرته الجامدة والمربكة معًا إزاء الأطفال. فالمسألة ليست مشكلة أدبية وجمالية في المقام الأول بقدر ما هي اجتماعية فكرية عكست نفسها على المفاهيم الجمالية وعلى الوعي بالجمال بصورة عامة. وربما من المفيد والمهم قبل التفكير في المادة التي تُكتب للأطفال هو التفكير في ماذا نعرف عن الأطفال؟[٢٦].

إن الثقافة العربية لم تُنْتج إلى اليوم أدبًا للأطفال يُعَتدُّ به. لا لعجز في المخيِّلة، فالعرب

(٢٣) انظر: نوري الجراح، ماذا نعرف عن الأطفال . . . ماذا نكتب لهم؟ ثقافة الطفل العربي ـ كتاب العربي، ٢٠٠٢، ص ص ٥٤ـ٥٧.
(٢٤) المرجع السابق، ص ٥٧ .
(٢٥) محمد المنسي قنديل، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦ .
(٢٦) نوري الجراح، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣ .

يتمتعون بمخيلات خصبة، ولا لقصور في اللغة وضيق رحابها، ولا لغياب الوعي بأهمية الابتكار وأهمية الخلَق الفني، وإنما لأسباب أخرى قد يكون أهمها إطلاقًا ضعف التواصل بين الأجيال، وهشاشة العلاقة بين الكبار والصغار، والجهل المدقع بعالم الطفولة وفضائها الحر، على خلفية مجتمع أبوي صارم يريد أن يلقن يقينه الخاص للطفل. وعلينا اليوم أن نفكر بمسئولية فيما يمكن أن تكون عليه ثقافة بديلة للطفل، تقوم على احترام حقيقي لوعي الطفل، وحسه الجمالي ورغبته في الاستكشاف، وولعه بطرح السؤال ونزوعه إلى الحرية، والسعي إلى إشراكه في صنع ثقافته واستقبالها، وإتاحة الفرصة له للأخذ بما نقدمه له كمقترحات جمالية وفكرية، ورفض ما لا يستستيغه حسه السليم بالأشياء. علينا أن نجد وسائل مناسبة لاختيار أفكارنا وصياغاتنا المتعلقة بالأطفال من خلال: لقاءات مفتوحة للأطفال والناشئة مع صانعي ثقافتهم، أُطُر وطرق فعالة لاستقبال آراء الأطفال فيما يُنتج لهم، ولاستقبال مقترحاتهم وأفكارهم من أجل البحث الحق في الأشياء، وبهدف تطوير نمط جديد من العلاقات الجمالية مع الأطفال. ووضع استراتيجية عربية على مستوى الأمة لبناء ثقافة جديدة منفتحة وذات فحوى إنساني موجهة للأطفال العرب[٢٧].

لقد عُقدت العديد من المؤتمرات والندوات ذات طابع عام أو متخصص في ميادين ثقافة الطفل العربي. وأنشأت بعض الدول العربية مراكز لأبحاث ودراسات الطفولة. وتركزت الكثير من الندوات حول كتب الأطفال، وبرز في الثمانينيات وعي متزايد بمسألة الغزو الثقافي، وتلازم هذا الوعي بطغيان الوسائط السمعية والبصرية على ثقافة الأطفال. وتتكرر التوصيات في هذه المجالات بدون استثناء في مختلف الندوات على مر السنين وبنفس الصيغ والتعابير. ويظل هناك قصور في التنفيذ، فبمقدار تقدم الوعي بأهمية ثقافة الطفل نجد أن التوصيات تبقى في معظمها مجرد أمنيات. كما يشير تكرار نفس التوصيات في حلقات مختلفة عُقدت في أقطار مختلفة بتواريخ متباينة، إلى مدى القصور في التنسيق العربي على صعيد ثقافة الطفل وصولا إلى استراتيجية موحدة قائمة على دراسة علمية للواقع والاحتياجات الراهنة والمستقبلية[٢٨].

وقد خرجت الخطة الشاملة للثقافة العربية إلى النور في ١٩٨٥ بعد اعتماد تقريرها النهائي من قبَل المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في ديسمبر من نفس العام. وشارك في وضعها ٦٠٠ خبير ومتخصص في مختلف مجالات الثقافة؛ وعُقدت لها ٢٧ ندوة مخصصة في كل من موضوعاتها في مختلف الأقطار العربية، وقُدم خلالها ٦٠ بحثًا. وتهدف إلى وضع استراتيجية عربية شاملة للثقافة العربية. على أن ثقافة الطفل أُدرجت كجزء من ثقافة القوى البشرية، ولم تُعقد لها ـ على أهميتها ـ ندوة خاصة. وإن كانت التوصيات قد ركزت على الأسس الثابتة التي يجب أن

(٢٧) المرجع السابق، ص ٥٣ـ٥٩.

(٢٨) مصطفى حجازي وآخرون، ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة، سلسلة ثقافتنا القومية، المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩٠، ص ٧١ـ٧٣.

تقوم عليها ثقافة الطفل، وهي: تأصيل الهوية الثقافية مع اهتمام خاص باللغة العربية، واستخدام الثقافة من أجل إطلاق طاقات النمو عند الطفل وتحصينه بالثقافة العربية ضد الغزو الثقافي والاغتراب، والعناية بإعداد الخبراء والفنيين في مختلف جوانب ثقافة الطفل[٢٩].

٧- خلاصة:

رغم ازدياد الوعي بأهمية ثقافة الطفل ودورها في مستقبل الأمة العربية، لم يُترجم هذا الوعي بعد إلى برامج فعلية على أرض الواقع. والثغرة الأخطر في كل ذلك تكمن في فقدان خطة شاملة لثقافة الطفل العربي مبنية على معرفة وثيقة بخصائص الطفولة العربية واحتياجاتها وتحديد ما يُراد لها مستقبلاً. وهذا ما يجعل الإنتاج الثقافي، حتى الذي يأخذ طابع الريادة منه، يظل محاولات مُحاصَرة، أو جزراً معزولة لا يُكتب لها الانتشار الكافي في الوقت الذي تملأ الساحة العربية التسربات الثقافية الغربية، وهو ما يشكل تهديداً جديًّا لثقافة الطفل ومستقبله[٣٠].

لقد أردنا من خلال هذه الورقة أن نؤكد على أهمية استثمار مرحلة الطفولة المبكرة، والتي هي أفضل مراحل النمو المعرفي وقمة الاستعداد للتعلم، حيث يتمكن الطفل بالفعل من تعلم تراكيب اللغة الصحيحة في هذه الفترة العمرية، شريطة أن يوجد في بيئة غنية لغويًّا، لذلك يجب البدء في تعليم اللغة العربية للطفل مبكراً وعدم الانتظار حتى دخول المدرسة في سن السابعة. كما أردنا أن نوضح عدم إمكانية الاعتماد على الأسرة فقط في تربية الطفل؛ لأن تربيته مسئولية اجتماعية تشاركية. وأخيراً أخذ احتياجات الطفل العربي في الاعتبار؛ لنتمكن من الكتابة له بطريقة قادرة على الرد على تساؤلاته ورغبته في اكتشاف العالم من حوله، قادرة على خلق الانتماء للغته والاعتزاز بهويته.

٨- التوصيات:

١- اعتبار مرحلة التعليم قبل المدرسي جزءاً أساسيًّا من التعليم العام ورصد الميزانيات الضرورية له.
٢- توضيح الهدف الذي تسعى له البلاد العربية من التعليم وصياغة مناهج تعليمية تعتمد الجودة أساسًا لها لتحقق الهدف من التعليم.
٣- وضع برنامج تدريبي مكثف لتعليم مدرِّسي اللغة العربية الطرق الصحيحة لتعليم اللغة وتصحيح الأخطاء اللغوية في المناهج الدراسية.
٤- إنشاء جهة عربية متخصصة تحت إشراف نفسي ولغوي عال تُعنى بإصدار قصص للأطفال منذ السنوات المبكرة، متسلسلة بحسب السنوات العمرية بما يتوافق مع نمو الطفل الفكري والنفسي. وعمل مسابقات على المستوى العربي لكُتَّاب قصص الأطفال.

(٢٩) المرجع السابق، ص٧٤.
(٣٠) انظر: المرجع السابق، ص ٧٥.

٥ـ عمل تدريبات دورية مستمرة لمجموعات من الكتاب الشباب في العالم العربي على طريقة الكتابة للطفل.

٦ـ إصدار مجامع اللغة العربية قواميس للأطفال تحتوي على ترجمة للمصطلحات العلمية والتقنية الجديدة بعيدة عن التعقيد .

المراجع:

١ـ ابتسام البسام ود. صلاح الدين المتبولي، التعليم للجميع في الوطن العربي، دراسة تحليلية ورؤية مستقبلية ـ من داكار عام ٢٠٠٠م حتى عام ٢٠١٥م.

٢ـ أحمد عبد الله العلي، الطفل ومهارات القراءة، إشكاليات القراءة الآلية وتكنولوجيا التعليم، إعداد قارئ جيد في مجتمع معاصر، دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٣م.

٣ـ الغالي أحر شاو، الطفل واللغة، تأطير نظري ومنهجي للتمثيلات الدلالية عند الطفل، الكتاب الأول، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣ .

٤ـ الغالي أحر شاو، الطفل واللغة، نمو التمثيلات الدلالية لبعض الأفعال في اللغة العربية عند الطفل، الكتاب الثاني، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣ .

٥ـ اليونيسكو، ملخص التقرير العالمي لرصد التعليم للجميع، ٢٠٠٧م.

٦ـ جامعة الدول العربية ومنظمة اليونيسف، عالم عربي جدير بالأطفال، ٢٠٠٤ .

٧ـ سامح كريم، مجلات الأطفال وتنمية الميل للقراءة، ثقافة الطفل العربي، كتاب العربي، ٢٠٠٢م.

٨ ـ سهام الصويغ، المكونات والخصائص الجسمية والعقلية والاجتماعية والانفعالية للطفل في مرحلة ما قبل المدرسة (٣ـ٦ سنوات)، المؤتمر الخامس لوزراء التربية والتعليم العرب – التربية المبكرة للطفل العربي في عالم متغير، القاهرة ١٠ـ١١ من سبتمبر ٢٠٠٦م.

٩ـ عبد التواب يوسف، أطفالنا وعصر العلم والمعرفة، دارالفكرالمعاصر، بيروت ودمشق، ٢٠٠١م.

١٠ـ عبد التواب يوسف، تنمية ثقافة الطفل، دار الفكر المعاصر ـ بيروت، دار الفكر ـ دمشق، ٢٠٠١م.

١١ـ طلعت عبد الحميد، منهج التطبيق المتكامل لحقوق الطفل في مجال التعليم والثقافة، في كتاب كفالة حقوق الطفل في البلاد العربية، المجلس العربي للطفولة والتنمية، (تحت الطبع).

١٢ـ عبد العزيز السنبل، التربية والتعليم في الوطن العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين، دار المريخ للنشر، الرياض، ٢٠٠٤م.

١٣ـ علي عبد الواحد وافي، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٨٠.

١٤ـ محمد المنسي قنديل، مشكلات الكتابة للطفل العربي، ثقافة الطفل العربي ـ كتاب العربي، ٢٠٠٢م.

١٥ـ محمد رفقي محمد، سيكولوجية اللغة والتنمية اللغوية لطفل الرياض، دار القلم، ١٩٨٧.

١٦ـ مصطفى حجازي وآخرون، ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة، سلسلة ثقافتنا القومية، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩٠م.

١٧ـ فتحية محمود صديق، التعليم من المهد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٨ـ فهيم مصطفى، تهيئة الطفل للقراءة برياض الأطفال، مكتبة الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢م.

١٩ـ فهيم مصطفى، مشكلات القراءة من الطفولة إلى المراهقة ـ التشخيص والعلاج، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٠ ـ نوري الجراح، ماذا نعرف عن الأطفال. . . ماذا نكتب لهم؟ ثقافة الطفل العربي ـ كتاب العربي، ٢٠٠٢م.